الطب في بلاد العرب

لا يزال الاعتماد في بلاد العرب وسواحل خليج فارس العربية على الطب القديم وتجارب المجربين، ويرجع الفضل في إيجاد الأطباء الحديثين في بلاد العرب إلى الأمريكان، والإنجليز في البصرة والخليج العربي، وإلى الأتراك في الحجاز واليمن والإحساء، وللملك عبد العزيز في نجد ، كما يرجع الفضل للحكومة البريطانية والتركية في إيجاد نظام الكورنتينات في جميع السواحل العربية لوقاية السكان من الأمراض الفتاكة وحصر المرض في دائرة ضيقة، ومع ذلك فالعرب على العموم لم يقبلوا على التطبيب الحديث إلا في الجراحة فقط، وهذا من عهد قريب فقط. أما في الأمراض الباطنية فلا يكادون يعترفون بفضل الطب الحديث، ولايزال القسم الأكبر منهم يعتمد على الأعشاب وعلى معالجات ابن سينا وتلاميذه.

وقد كان ولا يزال كثيرون يحترفون التطبيب العربي، وكان منهم رجال مشهورون بإخراج المكسورة وتركيب عظام غيرها بدون استعمال البنج بالطبع، وهم يستعملون الكي[1] في كثير من الأمراض، ولاسيما الكَلَب، وفي الإصابة بالرماح يستعملون نوعاً خاصاً من الكي، وهو أن تحفر حفرة صغيرة ثم تشعل فيها النار، حتى إذا خفت حرارة النار وضعوا العضو المصاب داخل الحفرة بطريقة خاصة، وهي إن كانت من العمليات الشاقة، إلا أنها في الغالب يعقبها الشفاء.

وهنالك نوع خاص من تطبيب الحيوانات في البادية: فأولها العَزْل، وهو يستعمل في الخيل والجمال، فإذا أصيبت ببعض الأمراض القتالة المعدية عزلوا السليم إلى أماكن بعيدة ، وهذا نوع من الكُرَنْتينة الفطرية، وهنالك مرض يصيب

(١) غير أنهم يفرطون في استعماله، فهم يكادون يستعملونه في كل مرض، وقد روى عن النبي ﷺ الإباحة والنهي عنه إذا أمكن التداوي بغيره وإذا لم يمكن التداوي فيباح.

الغنم يسمونه (أبو رُمح) يسعل الحيوان ثم يموت سريعاً، فالبدو يذبحون الحيوان الميت ويخفون رئتيه، ثم يأخذون من الرئة المجففة قطعة صغيرة ويشرطون بالمشرط أذن الحيوانات السليمة، ثم يضعون قطعة مما أخذوه فوق الأذن فتتسلم الحيوانات من العدوى ، هذا معروف في كل البادية تقريباً، وهنالك مرض فتاك يسمى (الفاقوش) يصيب الخيول ولا دواء لها إلا عزل الخيول الصحيحة في أماكن بعيدة ، أما التلقيح ضد الجدري فقد انتشر كثيراً في البحرين والكويت والإحساء وقد أخذ ينتشر في السنين الأخيرة في نجد والحجاز ويرجع الفضل في انتشاره في داخلية نجد للمجهودات التي يبذلها الملك عبدالعزيز، وقد كان العلماء مباحث طويلة، فيه، وفي أنواع التلقيح ضد الطاعون والكوليرا وغيرها، هل هي جائزة أو غير جائزة، ولايفهم من هذا أن هذه المباحث كانت من علماء نجد فقط؛ بل إن علماء البحرين والإحساء ومصر كان لهم م،محالوات طويلة في هذا الموضوع، ولم يقبل أهل عمان وضع كُرَنْتِينَة عندهم وقاية من القادمية من البصرة حين انتشار الكوليرا، ولم يقبل أكثرهم التطعيم من الجدري وقت انتشاره، ولا تزال هذه الأمراض تفتك بالسكان الجهلاء من وقت لآخر.

ولقد أولى الملك سعود اهتمامه العظيم بالإكثار من المستشفيات والمستوصفات في البلاد وإحضار نطس الأطباء من مختلفي البلدان العربية والأوربية، وإذا قورنت البلاد الآن بما كانت عليه قبل عشرين سنة من هذه الناحية لوجدنا أن البلاد قد سارت شوطاً بعيداً في سبيل الإصلاح الطبي .

وليس من الغريب في بلاد واسعة كجزيرة العرب لم ينتشر فيها ذيوع الطب الحديث أن يسود سوق التجارب وفيها المفيد النافع والضار الذي لا تؤمن مغبته، فمن الأدوية الشائعة للأمراض المستعصية، ولا سيما الأمراض العصبية كتابة سورة من القرآن في صحن ثم محو الكتابة بماء الورد ثم سقيها للمريض ، وفي

البحرين والكويت يتخذ بعض الأفاقين هذا النوع من التداوي تجارة رابحة، ومن الأدوية الشائعة فيها لكثير من الأمراض حتى للقروح المستعصية أن يذهب أحد أقرباء المريض ومعه فنجان مملوء بالماء أو السمن ثم يقف على باب المسجد لينفث فيه كل المصلين عند خروجهم من المسجد، فمنهم من ينفت بلا قراءة، ومنهم من ينفث بعد قراءة ما يريد من قرآن أو دعاء . وقد كانوا ولايزالون ينهون عن تنظيف العين المصابة بالرَّمَد الصديدي الذي يسمى «أبو طُبَّيق» ، ويكتفون بمنع الطفل المريض من بعض المآكل ، وقد كانت النتيجة إصابة الكثير بالعمى أو غيره من الأمرض .

وربما كان لأول مرة وصفتُ لأحد المرضى بالكويت سنة ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) الغسل المتكرر بالبوريك، فكانت النتيجة شفاء الطفل بعد أيام قليلة، فكثر استعمال البوريك بعد هذه الحادثة في الكويت. على أن للبعثات الأمريكية والإنجليزية في البحرين والكويت والبصرة وسائر السواحل العربة فضلاً كثيراً في تحبيب الطب الحديث إلى الناس؛ ولكن هذه البعثات بما يحيط بأعمالها من أغراض دينية جعل الناس يبتعدون عنها، وجعل فريقاً من الناس يتهمونهم بالغش للعداوة الدينية المتأصلة. ويداوون مرضى الأطفال بالحصبة بحجزهم في حُجَر مظلمة لا تدخلها الشمس وحِمْية الأطفال حمية تامة عن جميع المآكل. ويداوون اليَرقَان الذي يسمونه «أبو صُفَيْر» بالكيّ في أصابع اليد والرجل. ومن العقائد الشائعة في البلاد العربية أن الجروح تشم أو تتأثر بالروائح العطرية فتنتفخ وتؤذي المريض، ولذا فالجرحى يضعون قطعة من الحِلْتِيت في خرقة يسدون بها أنوفهم حتى لا يشموا أو حتى لا يتأثر الجرح بالروائح الطيبة.

ومن الشائع أيضاً أن لحم بقر الوحش يخرج الرصاص من الجروح، فإذا أصيب أحد برصاصة في حرب واستعصى عليها إخراجها، أكل قطعة من لحم

بقر الوحش اعتقاداً منه بأنها هي الدواء الوحيد لإخراج الرصاصة من الجرح، ولذا فمن أفخر الهدايا أن تقدم بقرة وحش، وما أقلها في بلاد العرب مقددة إلى أحد أمراء لأن ذلك يقوم مقام مستشفى كبير للجراحة.

ومن الأدوية الشائعة المعروفة عندهم أن كل المرارة سبعة أيام على الريق يشفي من الدمامل، وفي بلاد العرب استعمال المعاجين لاكتساب الشيخ نشاط الشباب، ولذا فإن ما قدم أحد من الهند أو السواحل أو قدم أحد الأطباء لزيارة السواحل العربية، كان أكثر ما يلقى عليه من الأسئلة، وما ينهال عليه من الطلبات هو هذا الدواء.

ومما يناسب ذكره في هذا الموضع قصتان وقعتا على شخص الملك المرحوم عبد العزيز ابن السعود: الأولى في أواخر سنة ١٣٤٢-١٩٢٢، والثانية بعد الأولى ببضعة أشهر: أصيب الملك ابن السعود بدمل صغير في شفته، ولما أهملت العناية بهذا الجرح الصغير حصل تقيح شديد في الجرح وسبب حمى شديدة كادت تودي بحياة الرجل، فاستعملوا له كل أنواع العلاج المستعملة في نجد من كي وغيره، فكانت الحالة تزداد كل يوم خطراً، فدُعى الطبيب الأمريكاني من البحرين الدكتور (ديم) فعمل له عملية جراحية بسيطة شفى بعدها بعد أسبوعين، فكان هذا خير شاهد لفضل الطب الحديث.

الحادثة الثانية أصيب جلالته برَمد حاد، فبعد أن طال علاجه على يد الطبيب، اقتنع بالعلاج المحلي الذي كانت عاقبته ظهور قرحة في العين، غير أن الطب الحديث أصلح ما أفسد العلاج المحلي[1]، فعاد للعين شيء من قوتها ونورها.

(١) ويجب أن نذكر بمزيد الافتخار المهارة التي أبداها أحد الأطباء المصريين المرحوم الدكتور سالم هنداوي، فلمهارته الفضل الأكبر في نجاح العملية.

وبعض أمراء العرب وشيوخهم لهم إلمام بالطب الباطني القديم، فلكل واحد منهم مستحضرات خاصة يستعملها لنفسه ويشير بها على أصدقائه ومحبيه. وقد كان المرحوم الإمام عبد الرحمن والد الملك عبدالعزيز ملماً بكثير من المعارف الطبية المستمدة من قانون ابن سينا وتذكرة داود وأشباهها، وقد كان يرجع إليه في بعض الأمراض فيصف لها ما يعرفه من الدواء، وقد ورث عنه المرحوم جلالة الملك عبدالعزيز بعض هذه المعارف، كما ورث عنه بعض هذه المواصفات، فهنالك وصفة يستعملها الملك عبد العزيز على الريق حضراً وسفراً، وهي مزيج من خشب العود والصبر والمصطكا تمزج بالتساوي.

ومن لطائف الطب التجريبي القصة التالية الشائعة في البحرين، ولعلها مختلق للدلالة على بساطة أهل البحرين : كان يسكن جزيرة المُحَرَّق رجل مُسِن مصاب بالدوسنتاريا المزمنة حتى يئس منه أهله وبنوه ، ولم يفكروا في عرضه على الطبب، لأنهم ممن لايؤمنون بفائدة الطب ولا بعلاج الطبيب. طلب الشيخ من ولده وقد كان ملاحاً أن يصحبه في سفينته ليستنشق الهواء ويودع هذا العالم، وصلت السفينة المَنَامَة، وهناك ترك الولد السفينة وفيها والده لقضاء حاجة في السوق ، وفي أثناء غيابه حضر عبد من عبيد شيوخ البحرين المعينين للسخرة، فسأل الشيخ المسن عن البحَّار لأن لديه قتاً (برسيما) فأخبره الوالد بأن صاحب السفينة في السوق ، فاستكثر العبد هذا الجواب، فنزل عليه بالعصا بدون رحمة ولا شفقة، فقفز الرجل من شدة الألم إلى البحر، وبقى في البحر حتى جاء ابنه الذي نقل البرسيم سفينته إلى الجزيرة الثانية، ونقل والده أيضاً إلى البيت، فأما الوالد فقد شفى بعد هذه العملية من مرضه، فاعتقد أن ظروف الحادثة هي التي شفته من مرضه المستعصى، وصار يصف لكل مريض مصاب الدوسنتاريا أن يذهب في السفينة ويجري عليه ماجرى عليه.

وقد أخبرني المرحوم على الفَهد الخالد من كبار أهل الكويت، أن رجله أصيبت بقرحة استعصت على الدكتور« بنيت» الطبيب الأمريكاني بالبصرة وأشار عليه بقطعها، فذهب إلى مزرعته بالبصرة يسوده الحزن والغضم على هذه المصيبة ، فلما رأته إحدى الفلاحات استكشفت أمره وهي تعهده مرحاً فرحاً، فأخبرها بأمره وبأمر الطبيب وبأن حياته في خطر، فقالت لا تحزن لقد جرّبت الطبيب نحو شهرين أفلا تجرب دوائي أسبوعاً، فبعد تردد قبل ، فأحضرت له مرهماً من مختلف الأعشاب، وكم كانت دهشته حين شفى تماماً بعد أسبوعين، وقد عرض أمره على الدكتور بنيت فوجد القرحة قد زالت تماماً ولم يبق أي أثر للتقيح، وأخبرني المذكور أن الدكتور حاول أن يتعرف الأعشاب المذكورة ليختبرها علمياً وعرض جائزة كبيرة على المرأة فلم تبح له بسرها.

وهنالك نوع من الطب له صفة التقديس ؛ وهو ما يسمى بالطب النبوي، فقد ورد في البخاري وغيره من كتب الحديث بعض الأدوية التي كان الرسولﷺ يستعملها أو يوصي باستعمالها ، فأخذت هذه الوصفات صفة التقديس، وكثير من الوصفات لا تنكر فائدتها، ولا يزال الطب الحديث يأخذ بقسم منها ولقد تكلم العلامة ابن خلدون على الطب النبوي في مقدمته فقال : وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة مقصورة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أله ليس على فائدته طبيعي ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطداء معروفون: مثل الحارث بن كلدة وغيره، والطب المقول في الشرعيات من هذا القبيل ، وليس عن الوحي في شيء وإنما هو أمر كان عادياً عند العرب؛فإنه ﷺ إنما بعث لتعليمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم، فلا

ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة على أنه مشروع، فليس هنالك ما يدل عليه، اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك، فيكون له أثر عظيم في النفع، فيكون من آثار الإيمان وليس من الطب المزاجي.

ورأى ابن خلدون وإن كان يجد له أنصاراً ممن ضربوا بسهم في العلوم الطبية الحديثة، فإن أنصاره قليلون في جزيرة العرب.

وإن سنة ١٣٤٢هـ سنة ١٩٢٣م تعتبر فتحاً جديداً للطب الحديث في جزيرة العرب، ففي هذه السنة عين الملك عبد العزيز أحد الأطباء السوريين طبيباً خاصاً له وللقصر أيضاً، ولما تم لجلالته فتح الحجاز سنة ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٥م نظم الإدارة الطبية فيها على أحدث الطرق، وجعل شُعَباً في نجد والإحساء وعسير فضلا عن مدن الحجاز المهمة، وهي تقوم بمهمتها خير قيام حسب ما تسمح به موارد المادية ، وإذا كنا نأسف لانحطاط المستوى العلمي الطبي في البلاد العربية فلا يجب أن ننسى فضل العرب وما قدموه للعالم في فن الطب والعلاج، وما أسسوه من مستشفيات لمختلف الأمراض في بغداد والشام والقاهرة والأندلس، فلقد كانت جامعاتهم في أهم المدن العربية مرجع الطلاب الأجانب كما هي حال جامعات الغرب اليوم، ولقد ظل الطب العربي مرجعاً للعالم مدة غير قصيرة إلى أن حلت النظريات والتجارب الحديثة محل النظريات القديمة.

ويجدر بنا ونحن نكتب للتاريخ والحقيقة ز نذكر الخطوات الواسعة التي تسير بها إدارة الصحة في المملكة العربية السعودية، والبلاد العربية الأخرى مثل البحرين والكويت فقد شيدت المستوصفات في كثير من البلاد التي كانت محرومة كما أسست بعض المستشفيات في بعض الأنحاء النائية. وقد سنت سنة حسنة في إنشاء المستوصفات النقالة أو الطبيب الرحالة المتنقل من بلد إلى بلد آخر

فقد أدت هذه الطريقة إلى النهوض بالحالة الصحية نهوضاً لا ينكر.

ولقد شنت إدارة الصحة حربا شعـواء على الملاريا في المناطق التي تنتشر فيها الملاريا كمـا أن الأطباء الأمريكيين قد سـاهموا بمجهود يشكر في مناطق الـبترول على الخليج العربي.

وإذا نهض العـرب مـرة أخرى وأخـذوا بقـسطهم العلمي في الطب وسـائر العلوم المادية فإنهم لا يأتون ببـدعة، بل يعتبـرون كمحْيين لعهـد أجدادهم الذين ملكوا ناصية العلم حقبة من الزمن، وقدموا للإنسان خِدَماً لا تنكر - إن ذلك دَين في عنق العالَم العربي يجب عليه وفـاؤه. إن النشاط العربي والتطورات السريعة التي نراها في البـلاد العربية تجـعلنا متـفائلين خيـراً من المستـقبل- فالـلهم حقق الآمال.

العلوم والمعارف في جزيرة العرب

إذا استثنينا بيوت بعض علماء نجـد والإحساء فإننا نستطيع أن نقول : إن بلاد العرب كانـت خلوا من المدارس بمعناها المعروف ؛ فالأتراك لم يتركـوا أثراً يذكر أثناء حكمهم في بلاد العـرب من هذه الناحية، فكل مـجهوداتهم انحـصرت في إنشاء بعض مدارس ابتدائية صغيرة لم يكن الإقبال عليها يذكر لما كان يحوطها من الشبهات؛ فـفي إقليم الإحساء الواسع لم يؤسس إلا مدرسة صغـيرة بعد إعلان الدستور العثماني.

وكذلك الحال في اليـمن والحجاز؛ ولذا فالأميـة تكاد تكون سائدة في جزيرة العرب، وربما كانتِ أول محـاولة لتثقيف العقول والقـضاء على شيء من الأمية كانت من جانب السيد محـمد على زَيْنَل رضَا في الحجاز؛ فإنه في سنة ١٣٢٦هـ وما بعـدها قام بإنشاء مدرسـتين: إحداهما في جدَّة والأخـرى في مكة، ومع ما وضع في طريقـه من العـقـبات ومـا أحـيط بمشـروعـه من الشكوك من الأتراك والأشـراف فإن هذه المدارس قـد قامت بنصـيب وافرفي الحـجاز، وربما كـانت الشبيبة الموجودة في الحجاز اليوم هي من غرس هذه المدارس.

وهذه المدارس وإن كانت تسـير في التعليم على الطريقـة القديمة العتيـقة التي ترتكز على الحفظ لا على التـفكير، فإنهـا كانت المدارس الوحيدة في الحـجاز . على أننا لا ننسى هنا بعـض المعاهد التي أسـسهـا الهنود في مكة والمدينة، فإنـها قامـت أيضاً بنصـيب يذكر، وكل مـا كان في الحـجاز هو حلقـات الدروس في المسجد الحرام على نظام التدريس في الأزهر قـدمياً، ولم يكن العلماء يلمّون إلا ببعض العلوم الشرعية واللغوية.

وفي سنة ١٣٣٠هـ أسس أهل الكويت مـدرسة سـموها المدرسـة المباركـيّة ،

لأنها أسست في عهد الشيخ مبارك الصباح، وفي السنين الأخيرة نشطت البلدة نشاطاً عظيماً ي فتح دور العلم وإرسال الطلبة إلى مصر وأوربا للانتهال من موارد العلم في مختلف فروعه.

وفي سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م) أسس أهل البحرين مدرستين: إحداهما في جزيرة المحرَّق، والأخرى في جزيرة المنامة، كان التعليم فيها لا يتعدى تعليم القراءة والكتابة ومبادىء النحو والحساب والجغرافيا. ولقد أراد المصلحون في الكويت والبحري والحجاز إحداث انقلاب في التعليم يرمي لى إيجاد شبَّان مفكرين متنورين يصلحون أن يكونوا نواة صالحة للمستقبل، ولكن العقبات كانت كثيرة، وأكثرها قائم من الجامدين الذين يعتقدون أن كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة.

لقد قام في الكويت والبحرين ونجد ضجة عظيمة من جانب العلماء على القول بكروية الأرض وحركتها، وتعليم اللغات الأجنبية، مما يذكرنا بحوادث العصور الأولى، ولولا أن السلطة تنقص هؤلاء لأوقعوا من العقوبات بخصومهم ما لا يقل عما وقع في القرون الوسطى في أوروبا.

ولقد تطورت حالة التعليم في الكويت والبحرين وسائر البلاد العربية تطوراً حسناً، فأنشئت إدارة خاصة للإشراف على التعليم ومنحه العناية الواجبة، واختير لإدارته في كلا البلدين أحد أعضاء الأسرة الحاكمة المعروفين بالاهتمام بانتشار التعليم، ولقد سادت روح التعليم العصرية المبنية على نمو الفكر الطريقة القديمة المؤسسة على الحفظ وتقوية الذاكرة.

وفي السنوات العشر الأخيرة زاد عدد المدارس زيادة كبرى في كلا البلدين وأرسلت البعثات العلمية إلى العراق وسوريا ومصر للاغتّراف من مناهل العلم

العذبة، كما وفد على الخليج العربي بعثات منتدبة من حكومتي مصر وسوريا لمساعدة حكومات الكويت والبحرين للنهوض بالعلم والتعليم ، فأدَّى هؤلاء الرسالة العلمية والتهذيبية على أتم وجه.

ولقد شاهدت لأول مرة الرياضة البدنية يعنى بها في تلك البلدان وأصبحت محل العناية اللائقة بها، فالعقل السليم في الجسم السليم. ومما لا شك فيه أن انتشار التعليم وتطوره سيكون له أثر فعال في مستقبل العرب عامة وهو وحده الكفيل بتقارب البلدان العربية وتكوين رأي عام عربي صحيح.

إن الحالة في الحجاز في أيام الشريف حسين لم تكن تختلف كثيراً عنها في أيام الأتراك، فمع أنه وضعت أسماء كبيرة: مثل المدرسة الراقية والزراعة والحربي وغيرها من المدارس، فإنها كانت أسماء لا تطابق الحقيقة، وما هي إلا طلاء لايحوي من ورائه شيئاً .

وفي أيام أول عهد الملك عبدالعزيز ابن السعود قامت حركة لا بأس بها في التعليم ولكنها أقل بكثير مما كان ينتظره الناس من رجل عظيم مثله، على أن هذه المدارس التي أسست بالحجاز لا يشمل برنامجها أكثر من برنامج المدارس الابتدائية في البلاد الأخرى، والتعليم فيها سائر على الطرق القديمة البالية من الاعتماد على الحفظ دون التفكير.

وإننا نسوق القصة التالية لتعلم مقدار الصعوبة التي يعانيها الملك ابن السعود ويعانيها أي مصلح يبريد النهوض بالتعليم:

في أوائل شهر يونيو سنة ١٣٤٧-١٩٢٧ قامت ضجة بين علماء الدين النجديين، واجتمعوا في مكة؛ وبعد التشاور فيما بينم وضعوا قراراً يحتجون فيه على إدارة المعارف في مكة، لأنها قررت في برنامج التعليم أولاً تعليم الرسم

وثانياً تعليم اللغة الأجنبية، وثالثاً تعليم الجغرافيا التي منها دوران الأرض وكرويتها.

ولما كان لي شيء من الإشراف على إدارة المعارف، فقد تذاكرت مع جلالة الملك في الموضوع ، فرأى من الحكمة أن أجتمع بكبار المشايخ وأبحث معهم الموضوع، فاجتمعت معهم ودار الحديث على الصورة الآتية :

حافظ : لقد أمرني جلالة الملك أن أحضر عندكم لأشرح لكم حقيقة المسائل التي رأيتم إعفاءها من برنامج التعليم، إنكم تعلمون مبلغ حبي لكم لأنكم من أنصار السنة، الآخذين بالاجتهاد، الرادين كل قول يخالف القرآن أو السنة الصريحة، ولقد مضى الزمن لدى أي كان قول العالم مهما كان حجة، ولا أعتقد أنكم تريدون منا أن نقبل كل. تقررون بدون مناقشة؛ فإن ذلك لا يتفق مع الروح التي تدعون إليها، ولا معنى لأن نعيب على الناس اتباعهم لعلمائهم من غير حجة أو دليل، وهنا نسير على نفس النسق.

أ. . المشايخ : إن ماقلته حق وصحيح، ولكن لقد بينا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التي تترتب على تقرير هذه العلوم. أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً . وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار وعلومهم الفاسدة، وفي ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا، وأما الجغرافيا ففيها كروية الأرض ودورانها، والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف.

حافظ : أما الرسم فليس هو التصوير لأن المقرر في المدارس الرسم أ يالتخطيط ، وهي معلومات أولية، الغرض منها تعليم الأولاد الدقة ومعرفة المسافات على الخرائط ومواقع البلدان، وهذا أمر لاشئ فيه، وقد اشتغل به كثير

من علماء السلف ولم يبلغ الأولاد درجة تمكنهم من التصوير؛ لأن علم التصوير هو من العلوم العالية التي تحتاج ممارستها إلى وقت طويل ودراسة واسعة. أما اللغات الأجنبية فقد كان الكثير من الصحابة يعرفون لغات عصرهم، ونحن في هذا العصر أجبرتنا الحياة على مخالطة الأجانب، فبدلاً من أن تتخذ لنا مترجمين لا نثق بهم نعتمد على أولادنا ونعلمهم اللغات، أما علوم الإفرنج : فمنها ماهو صالح يصح أن نأخذ به ونتعلمه، ومنها ما لايتفق مع ما نعتقد فنرفضه، وعلوم الإفرنج التي تقولون عنها قد ترجم كثير منها إلى اللغة العربية في مصر وسوريا والعراق، فالجهل باللغات لايمنع الناس من الاطلاع على ما كتب وترجم إلى اللغة العربية. وإن الخوف على العقيدة الإسلامية هو رمي لها بالضعف، لأن العقائد يجب أن تكون كالبنيان المتين لاتقوى عاديات الزمن على زلزلتها، ونحن نعتقد أن العقيدة الإسلامية الصحيحة إذا امتزجت بالدم وتملكت مشاعر النفس، فلن يقوى أي شيء على زعزعتها.

أما الجغرافيا فإننا لا نعلم الأولاد منها إلا ما يتعلق بوصف البلدان ومواقعها وحاصلاتها، وما يهمنا منها من الوجهة التجارية والعلمية، وما عدا ذلك من المسائل فإنه لا يعلم في المدارس على أنه عقيدة دينية يجب الأخذ بها، بل على أنه نظرية مقررة.

وهنا يحسن قبل أن أختم كلمتي أن أقول لحضراتكم: إن مسألة سد الذريعة قد وسعت بدرجة قضت على كل معنى مقصود منها، فحضراتكم كلما أردتم منع شيء قلتم سداً للذريعة ، فما قولكم في العنب والتمر يستخرج الخمر منهما، والحكومة قد ضبطت في بلد ا الحرام من يصنع الخمر من هاتين الفاكهتين، وقد وقع مثله في عصر الصحابة ، ولم يقل أحد بقطع أشجار الكروم والنخيل.

فلما رأى حضرات المشايخ أن البحث طال قالوا : لقد قررنا ما نعتقد ورفعناه إلى الإمام ولسنا في حـاجة إلى الجدل المنهي عنه شـرعاً، فإن قبل الإمـام ما رأينا فالحمد ، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها.

لقد وقف جـلالة الملك ابن السعود على هـذه المناقشة واقـتنع بثاقب فكره أن ليس لدى العلمـاء دليل ديني يصح الاعتـماد عليـه، فلم يوافقـهم على رأيهم ، واستمـر تعليم اللغات والرسم والجغـرافيا كمـا كان، هذا ما كان قـبل ربع قرن مضى، أمـا اليوم فقـد أنشئت وزارة للتعـليم وضوعف عدد المدارس الابتـدائية والثانوية وأرسـل إلى الخارج عدد كـبير من الـطلبة لإتمام دروسهم العـالية كـما أحضر عدد كبير من الأساتذة للانتفاع بعلمهم.

ومع شـيوع الأمـية فـيب بلاد العرب فـإن بعـضهم يتـفنن في طريقة ضـبط معاملاته أو حساباته بما يدل على ذكاء كامن أو بساطة في التفكير.

لقـد شاهدت في الكويت رجـلا من أهلهـا الأميين يصـور عمـلاءه (زباينه) بصور مختلفة : يصور أحدهم جملا، والآخر حماراً ، والثالث فرساً ، وهو في ذلك لا يكاد يخطئ ، وهو لو صرف بعـض وقته في تعلم القراءة والكتـابة لو فر على نفسه مؤونة الاخـتراع. أما الآخر هو يمت إلى العائلة الحاكـمة بالكويت فقد كانت مشهوراً بالبخل والحـرص؛ ولكي يكون أميناً على نقوده من اختلاس بنائه كان يضع في زاوية من زوايا بيـته عدداً من الخـوص يساوى عدد النقود المخـبأة، ويزيد وينقص بقـدر ما ينقص أو يزيد من النقـود، فلما اكـتشف أحـد أبنائه هذه الحيلة أصبح يأخذ ما يحتاج من الدراهم مع رفع عدد من الخوص مساو لها، وقد لبث عل يهذه الحـال مدة إلى أن ضبطه والده يأخـذ النقود، فأخـفى الخوص من الركن إلى مكان آخر كي يأمن شر ابنه.

وقد كان علماء الاحساء والبحرين ينكرون على المدارس تعليم الجغرافيا والقول بكروية الأرض، بل وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة، غير أن تقارب الأمم واختلاطها قد قضى على نفوذ هؤلاء في البحرين والكويت.

علماء الدين في جزيرة العرب

ليس في جزيرة العرب علماء بالمعنى في أوربا، وإنما يطلق لفظ العلماء على الدارسين لعلم الدين الملمين بمسائل الفقه الإسلامي.

وفي جزيرة العرب على العموم تُطْلق هذه الطبقة على نفسها طلبة العلم من باب التواضع، ويراد بالعلم في جزيرة العرب: التفسير، الحديث، الفقه، أصول الدين، علم العربية، التاريخ الإسلامي، وعلماء الدين في نجد أكثر اطلاعا في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية من غيرهم من علماء الكويت والبحرين وعمان، وسيرتهم في القضاء والإفتاء تشبه سيرة العلماء المتقدمين، كما أن حياتهم الشخصية من الورع والزهد يشبه سيرة علماء السلف المسلمين، لا تأخذهم في الحق لومة لائم. وعلماء نجد أشجع علماء جزيرة العرب ولا يبالون في سبيل الحق، ولبعضهم وقوف تام على أحوال البلاد المجاورة لنجد. وهم يكادون يصرفون أعمارهم في سبيل العقيدة الإسلامية، والرد على مخالفيهم من الطوائف التي لا تتهج نهجهم ، غير أنهم في بعض الأحيان يعنون كثيراً بالرد على بعض الفرق التي انقرضت ولم يبق لها أثر إلا في كتب العقائد.

وشأن علماء نجد شأن غيرهم في هذا القرن ليسوا كطبقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في علمهم وتبصرهم، بل شأنهم كغيرهم من علماء الدين في البلدان الأخرى يعتمدرون في حياتهم العلمية على من سبقتهم من المؤلفين؛ ولذا فإن

مؤلفـاتهم ورسائلهم لـيست كرسـائل الشيخ مـحمـد وبنيه في متـانة الأسلوب وحسن التصرف وكـثرة المصادر التي كان يرجع إليها، وهم لا يدَّعـون الاجتهاد المطلق، فهم مقلدون للإمام أحمد وللإمام ابن تيمية وتلاميذه كابن القيم وغيره . ولعلماء الجزيرة على العموم المقـام الأول عند الأمراء، والنفوذ العظيم في نفوس العامة، ومع أن أكثـر العلماء في جزيرة العرب أميل بطبعـهم إلى الهدوء والبعد عن مظاهر الدنيا، فـإن بعضهم قـد يغلو في حب الدنيا بل وقد يـستعمل مـركزه للثراء.

وعلماء الرياض أشد علماء نجد بغضاً ومقتاً للكفار والمبتدعة من المسلمين.

في سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) كنت مع المرحـوم الشيخ عبـدا بن حسن كبـير علماء نةد ورئيس القضاء في زيارة للتـفتيش في المدينة المنورة، فنزلنا على ماء في وسط الطريق يدعى آبار بِنْ حَصَـانى، وهنالك التقينا بمستر قلبي (قـبل إسلامه) وكان آتياً ن ينبع، فـبعد التحيـة دعوته للأكل معنا فعندمـا جلس معنا على المائدة سأل الشيخ: من هذا الرجل ؟ فقلت له: هذا فلبى: فقال أهو نصراني؟ قلت له: نعم. فقال أعوذ با ! أتقوم للنصراني وتصافحه وتهش في وجهه وتدعوه للأكل معنا؟ إن هذا كثير، فلما سمع مسـتر فلبى ذلك قام منعاً للمشاحنة ثم أخذ الشيخ يؤنبني على عملي.

فقلت: أيها الشـيخ مهلا. إننا نطمع في إسلام الرجل ونريد أن نستـميل قلبه ولا ننفـره من الدين، وإن الرسـول ﷺ جـذب الناس إليه بخـلقه الحـسن ولين جـانبه: (ولو كنت فظاً غليظ الـقلب لا نفضـضوا من حـولك) وإن الملك عبـد العزيز كثيـراً ما يقوم له ولغيره تأليفـاً لهم ودفعاً لشرهم؛ وكثيـراً مايدعوهم إلى مائدته، فـقال : أمـا القسم الأول فحـسن، وأما الثـاني فالملك قد يـفعل الشيء

لمصلحة يراهـا وهو غير حـجة في عمله وتصـرفاته، وكثـيراً ما أنكـرنا عليه هذا وأمثاله.

على أني أرى من الواجـب عليّ أن أذكـر أن هذا الرجل كـانَ لي نعم الرفـيق المواسى أثناء مرضـي في المدينة؛ لقد كان لا يرضى إلا أن يَسْقِيني الدواء بنفـسه كما أنه كـان يصرف قسطاً من وقتـه في تخفيف آلامي وأسقـامي مما يدل على ما فطر عليـه هؤلاء من الإخلاص وطيـب القلب، لا يحملون حـقداً لأحـد. ولا يغضبون إلا حيث يعتقدون أن منكراً اقْتُرِفَ أو أن حقاً من حقوق ا قد ضيع أو أهمل.

وعلماء نجد يحرمون التصوير ودروس المنطق والفلسفة، ولا يوجد لديهم من يعرف هذه العلوم، وقليل مـن يحيط بأسرار اللغة الـعربية وآدابها إحـاطة تامة، وقليل جـداً من يعرف علوم البـيان والاشـتقاق أو أسـرار البلاغـة، وقليل منهم المحيط بحـوادث التاريخ الإسلامي أو التـاريخ القديم، فـعلوماتهم التاريخـية لا تتجاوز السيـرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين، والتـاريخ القديم لا يعدو علمهم فيه الطبري وابن الأثير، أمـا الاكتشافات الحديثة وما غيـر معالم التاريخ القديم، فلا يكاد يعرف في جزيرة العرب، على أن هنالك روحاً جديدة في الأسرة المالكة في أبناء الملـك وبعض أشـقـائه في اقـتناء الكتب الحـديـثـة وحب الاطلاع على المؤلفات الحديثة في التاريخ والقانون وآداب اللغة العربية .

ونرى واجـبـاً علينا أن نقـول : إن الملك عـبد العـزيز لولا مـا يحـيط به من الصعوبات مـن جهة استعـداد شعبه لسـار ببلاده خطوات واسعة في سـبيل نشر الثقافـة وتعميم التعليم، وهو يفضل السـير التدريجي على قدر استـعداد الأمة، ولهذه الاعـتبـارات فإن الحالـة العلمية فـي الحجاز ونجـد أقل مما يجب أن يكون

وينتظر من ملك حكيم كالملك عبدالعزيز ، ومع هذا فإن حالة العلم في الحجاز ونجد أفضل من حالة بعض البلاد المجاورة كعمان واليمن. وعلماء نجد محافظون على القديم جداً ولا سيما ما يتعلق بالدين، فهم يرون بقاء العقيدة سليمة كما وردت في الكتاب والسنة من غير حاجة إلى تأويل، ويقولون: ليسعنا ما وسع عصر النبوة وخير القرون، وترى كتبهم ورسائلهم مشحونة بالرد على الفرق التي تجنح إلى التأويل أو تطبيق النظريات الفلسفية في العقائد .

ومع أن للعلم والعلماء منزلة في نفوس شيوخ العرب وعامة العرب، فإن الشيوخ قلما يعنون بتعليم أبنائهم وتثقيفهم، وقلما يعنون بغير الرماية والفروسية والصيد والقنص، وبعضهم يرى طلب العلم عيباً لأن ذلك قرين الجمود والخمود وانتظار الصدقات. أما الإمارة فقرينة الحركة والنشاط والتفكير.

والقصة التالية تروى في الكويت عن جابر الكبير جد الشيخ مبارك الصباح: فإنه حينما رأي أحد أبنائه يحضر مجالس العلم وصفه وباختلال العقل لأن الإمارة لاتجمع مع طلب العلم، ولكن هذا الفتى الذي اشتهر أول أمره بالتقوى وحب العلماء تغير سلوكه، فاستبدل بحلقات الدروس مجالس الأنس والطرب، وبالعلماء أهل الخلاعة، فسر والده من هذا التبدل وقال إن دم الصباح قد تغلب عليه. . . قد تكون هذه القصة موضوعة على جابر، ولكنها تعتبر أصدق تعبير عن خلق كثير من أبناء الشيوخ : صغارهم مولعون بتربية الكلاب، وكبارهم مولعون بالقنص والبطالة وقديماً قال الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده

على أن من بين شيوخ العرب قديماً وحديثاً من شذ عن هذا السبيل فاشتغل بالعلم والأدب وقرض الشعر وبرع ف يالعلوم الشرعية حتى بذ علماء عصره،

ويسرنا أن ننوه هنا بما بدا في السنين الأخيرة من اهتمام بعض الشيوخ بالعناية بتعليم أولادهم. لقد أرسل شيوخ الكويت والبحرين أولادهم إلى بيروت والإسكندرية للتعلم في الكلية الأمريكية وكلية فكتوريا، كما أن جلالة الملك عبدالعزيز مازال من وقت لآخر يبدي مزيد العناية بهذا الموضوع ويستعين برأي الخبراء في أمر التربية والتعليم، وقد أبدى الملك سعود نشاطاً ملحوظاً في نشر العلم وتشجيع المجتهدين من الطلبة كما أسس في أول عهده وزارة للتعليم فقامت بمجهود مشكور في نشر العلم والاكثار من دوره في الحاضرة والبادة، كما أسس جامعة باسمه في الرياض وهي خطوة مباركة نرجو أن يتبعها خطوات، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون؟